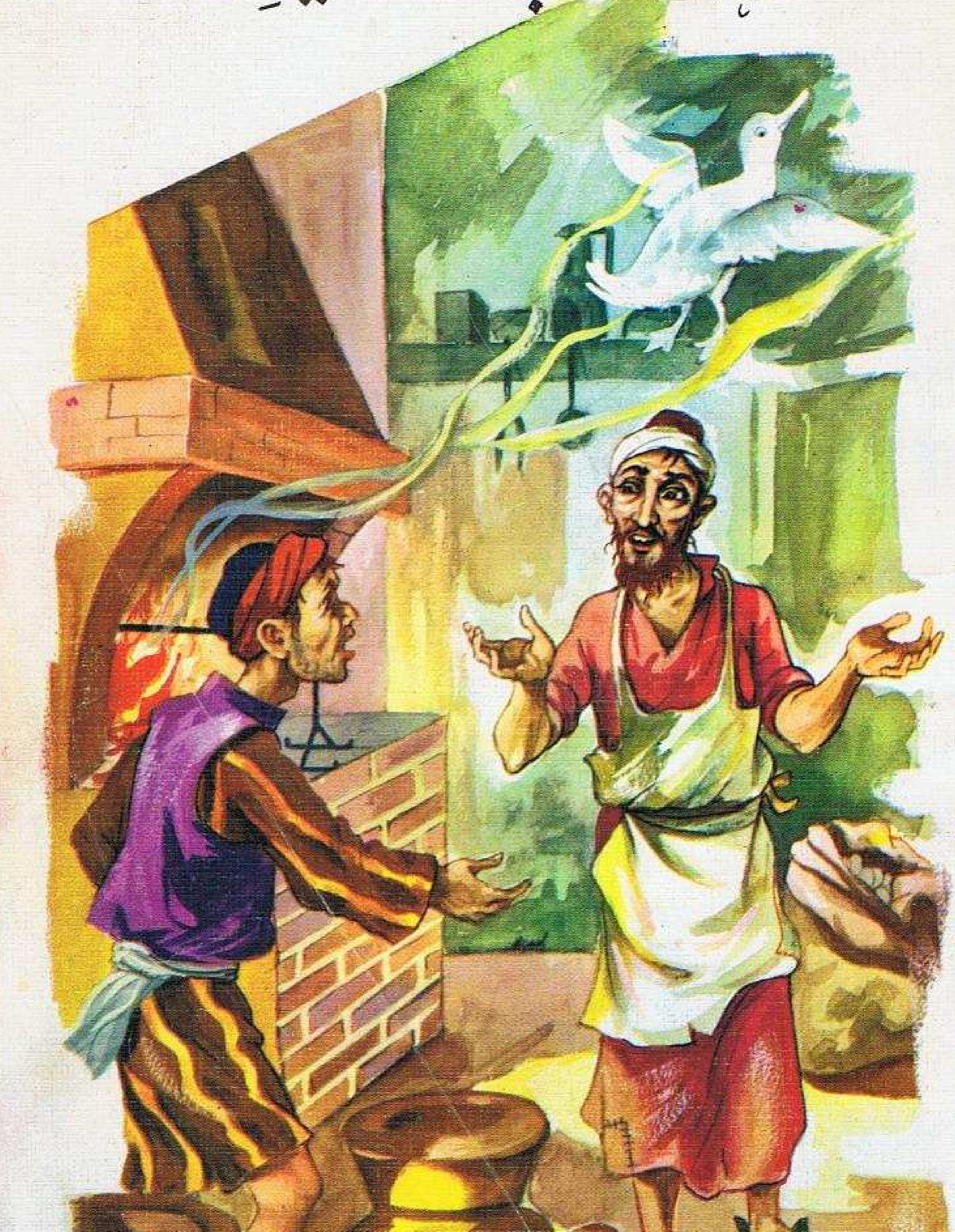
قِصَصُ جُحا

ذاتُ الجَناحَينِ

كامل كيلاني



الشركة التونسية للتوزيع

قصص جحا

كامل كيلاني

ذاتُ الجناحينِ

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

ذاتُ الْجناحَيْنِ

١ – الْوالِي « كَمِيشْ »

كانَ الْوالِي « كَمِيشْ » نَمُوذَجًا نادِرَ الْمِثالِ ، لِلسُّخْفِ والْخبالِ ، والِانْسياقِ فِي طَرِيقِ الْهَوَى والضلالِ .

كانَ لا يُبالِي النَّاسَ ، وَلا يَكْتَرِثُ لِلْعواقِبِ ، وَلا يَخافُ اللهَ .

كانَ – فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ، وَإِرْضاءِ أَنانِيَّتِهِ – لا يَعْبَأُ بِغَضَبِ الشَّعْبِ وَثَوْرَتِهِ .

كانَ – عَلَى ذَكائِهِ وَفِطْنَتِهِ ، وَرَجاحَةِ عَقْلِهِ وَبلاغَةِ حُجَّتِهِ – يَدْفَعُهُ الْهَوَى أَحْيانًا ، وَيُعْمِيهِ الطَّمَعُ وَيُضِلُّهُ ؛ فَيَعْتَسِفُ الطَّرِيقَ ، وَيَتَنَكَّبُ الْجادَّةَ ، وَلا يَخْجَلُ مِنْ تَلْفِيقِ الْحُجَجِ الْمُتَهافِتَةِ الْواهِيَةِ ، الَّتِي لا تَصْدُرُ عَنْ أَشَدِّ النَّاسِ غَفْلَةً وَغَباءً ، وَأَبْعَدِهِمْ عَنِ الْفَهْمِ والذَّكاءِ .

فِي الْقِصَّةِ التَّالِيَةِ : مَثَلٌ مِنْ حَماقاتِهِ ، يُؤَيِّدُ هٰذِهِ الْحَقائِقَ .

٢ – رائِحَةُ الشِّواءِ

ذاتَ يَوْمٍ :

كانَ الْوالِي « كَمِيشٌ » يَجُولُ فِي طُرُقاتِ الْمَدِينَةِ

شَمَّ الوالِي – فِي أَثْناءِ سَيْرِهِ – قُتارًا (رِيحَ لَحْمٍ مَشْوِيٍّ)

كانَ الْقُتارُ (رِيحُ الشِّواءِ) يَنْبَعِثُ مِنْ فُرْنٍ قَرِيبٍ .

كانَ الْوالِي « كَمِيشٌ » جائِعًا .

اِرْتَفَعَ قُتارُ اللَّحْمِ ، وَسَطَعَتْ رائِحَتُهُ .

لَمْ يُطِقِ الْوالِي صَبْرًا عَلَى الْجُوعِ .

٣ – بَيْنَ الْوالِي والْفَرّانِ

أَتَدْرِي ماذا صَنَعَ الْجائِرُ الْوَقاحُ ؟ !

أَشْنَعَ ما يَصْنَعُ ضالٌّ مُضِلٌّ ! !

أَقْدَمَ عَلَى فَعْلَةٍ نَكْراءَ ، وَشُنْعَةٍ حَمْقاءَ ؛ لا تَخْطُرُ عَلَى بالِ إِنْسانٍ ، وَلا تَمُرُّ بِذِهْنِ كائِنٍ كانَ !

* * *

نادَى الْفَرّانَ بِصَوْتٍ عالٍ .

سُرْعانَ ما حَضَرَ إِلَيْهِ .

اِنْطَلَقَ الْوالِى يُمْطِرُ الْفَرّانَ أَسْئِلَةً غايَةً فِى السُّخْفِ : أَسْئِلَةً لا تَصْدُرُ إِلّا عَنْ سَفِيهٍ أَحْمَقَ ، أَوْ مَخْبُولٍ أَخْرَقَ .

اِبْتَدَرَ الْفَرّانَ مُداعِبًا . قالَ :

« شَمِمْتُ رائِحَةَ شِواءٍ تَنْبَعِثُ مِنَ الْفُرْنِ !

خَبِّرْنِى : ماذا تَشْوِى ، أَيُّها الشَّقِىُّ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « إِنَّها وَزَّةٌ ، أَحْضَرَها بَعْضُ النّاسِ لِأَشْوِيَها لَهُ . »

قالَ الْوالِى مُتَظَرِّفًا : « تَعْنِى وَزَّةً ذاتَ جَناحَيْنِ ؟ ! »

قالَ الْفَرّانُ : « ذٰلِكَ ما عَنَيْتُهُ . »

تَمادَى الْوالِى فِى سُخْفِهِ ، فَقالَ :

« لِأَىِّ غَرَضٍ اسْتَوْدَعَكَ صاحِبُها إِيّاها ؟ »

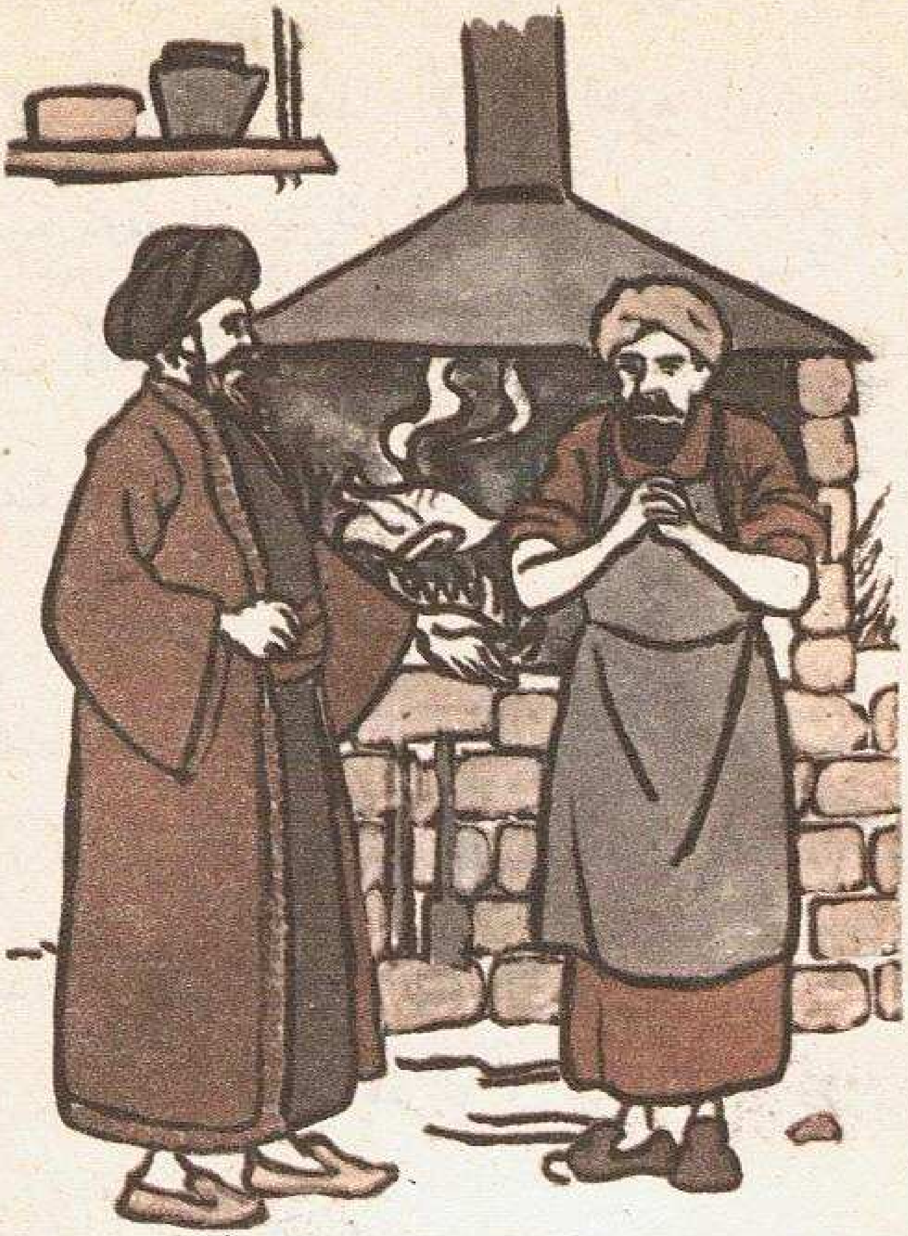
قالَ الْفَرّانُ : « أَرادَ أَنْ أَشْوِيَها لَهُ ! »

قالَ الْوالِى : « أَلَمْ يَقُلْ لَكَ : ماذا يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ بِالْوَزَّةِ بَعْدَ أَنْ تَشْوِيَها ؟ »

قالَ الْفَرّانُ :

« ماذا يَصْنَعُ إِلّا أَنْ يَتَغَدَّى بِها ، أَوْ يَتَعَشَّى ! »

* * *



أَمْعَنَ الوالِي فِي سماجَتِهِ . سَأَلَ الْفَرّانَ :

« يَتَغَدّى بِها أَمْ يَتَعَشّى ؟ ! كَيْفَ يَسْتَأْثِرُ بِها وَحْدَهُ ؟

لا رَيْبَ فِي أَنَّهُ أَنانِيٌّ شَرِهٌ ، لا يُفَكِّرُ إِلّا فِي نَفْسِهِ !

ما أَجْدَرَ الشَّقِيَّ بِالزَّجْرِ والْعِقابِ . »

قالَ الْفَرّانُ :

« بِماذا يَأْمُرُنِي السَّيِّدُ الْوالي ؟ »

قالَ « كَمِيشْ » : « خَبِّرْنِى أَيُّها الذَّكِيُّ :

أَلا تَستَكْثِرُ عَلَى هٰذا الأَنانِيِّ الشَّرِهِ أَنْ يَستَأْثِرَ بِذاتِ الْجَناحَيْنِ ، دُونَ أَنْ يُشْرِكَ فِيها أَحَدًا مِنْ أَصْحابِهِ ؟

كَيْفَ أَقْدَمَ الْخَبِيثُ عَلَى هٰذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنْعاء ؟

كَيْفَ جارَيْتَهُ فِى هَواهُ ؟ ! »

* * *

تَحَيَّرَ الْفَرّانُ وارْتَبَكَ .. سَكَتَ وَلَمْ يُجِبْ ...

لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ ؟!

شَهِدَ الْوالِى ما ارْتَسَمَ عَلَى وَجْهِ الْفَرّانِ مِنْ أَماراتِ الدَّهَشِ والْحَيْرَةِ . اِبْتَسَمَ الْوالِى لِلْفَرّانِ ، لِيُهَدِّئَ مِنْ رُوعِهِ .

شَفَعَ ابْتِسامَتَهُ بِقَوْلِهِ :

« أَلا يَعْلَمُ الْغَبِيُّ أَنَّ الْوالِيَ لا يُطِيقُ صَبْرًا عَلَى فِراقِ ذاتِ الْجَناحَيْنِ ؟

أَلا يَعْلَمُ الأَحْمَقُ إِلَى أَيِّ مَدًى يُبَرِّحُ بِيَ الشَّوْقُ ، كُلَّما شَمِمْتُ رائِحَةَ قُتارِها ؟ »

قالَ الْفَرّانُ :

« لا رَأْيَ إِلّا ما تَراهُ ! بِماذا يَأْمُرُ السَّيِّدُ الْوالِى ؟ »

قالَ « كَمِيشُ » : « أَنتَ - فِيما أَرَى - بارِعٌ ذَكِيٌّ !
لا رَيْبَ فِي أَنَّكَ تَعلَمُ ما أُرِيدُ !
أَنا لا أَطْلُبُ مِنكَ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا ، لا يُكَلِّفُكَ جُهْدًا كَبِيرًا . »
قالَ الْفَرّانُ :
« لِلسَّيِّدِ الْوالِي أَنْ يَأْمُرَ ، وَعَلَيْنا أَنْ نُطِيعَ ! »
قالَ الْوالِي :
« لا تَتَوانَ - لَحْظَةً واحِدَةً - فِي إِرْسالِ ذاتِ الْجَناحَيْنِ إِلَى دارِي ، بَعْدَ أَنْ تَشْوِيَها ، وَتُنْضِجَ لَحْمَها ؛ لِأُمَتِّعَ نَفْسِي بِأَكْلِها . »
اِشْتَدَّتْ حَيْرَةُ الْفَرّانِ . سَأَلَ الْوالِيَ مُتَعَجِّبًا :
« ماذا أَقُولُ لِصاحِبِها ؟ »
أَقْبَلَ الْوالِي عَلَى الْفَرّانِ يُرَبِّتُ كَتِفَهُ مُتَهَلِّلًا . قالَ لَهُ مُتَوَدِّدًا :
« لَنْ يَعْدَمَ ذَكاؤُكَ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى حِيلَةٍ تَتَعَلَّلُ بِها . »
وَجَمَ الْفَرّانُ . سَكَتَ وَلَمْ يَنْبِسْ بِحَرْفٍ .
أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْوالِي مُشَجِّعًا . قالَ :
« ما أَيْسَرَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَ صاحِبَ الْوَزَّةِ أَنَّ وَزَّتَهُ طارَتْ . قُلْ لَهُ فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلا خَوْفٍ : إِنَّ وَزَّتَهُ اسْتَرَدَّتِ الْحَياةَ بَعْدَ أَنْ شَوَيْتَها ، وَأَنْضَجْتَ لَحْمَها (جَعَلْتَهُ طَيِّبًا لِلْأَكْلِ) . »

قالَ الْفَرّانُ : « أمُصَدِّقٌ هُوَ ؟ ! »

قالَ الْوالِى : « سِيّانِ تَصْدِيقُهُ وَتَكْذِيبُهُ . »

قالَ الْفَرّانُ :

« كَيْفَ أَصْنَعُ إذا لَجَّ فِى غَضَبِهِ ، وَعَزَّنِى فِى الْخِطابِ ؟ »

قالَ الْوالِى : « إذا دَفَعَتْهُ الْحَماقَةُ إلَى الْغَضَبِ ، وَلَمْ يُذْعِنْ لِما تَقُولُ ، فَأَنا الْكَفِيلُ بِتَأْدِيبِهِ وَإقْناعِهِ .

لا تَتَرَدَّدْ فِى إحْضارِهِ لِتَحْتَكِما إلَىَّ !

أَنا الْكَفِيلُ بِرَدْعِهِ وَرَدِّهِ إلَى الصَّوابِ . »

٤ — صاحِبُ الْوَزَّةِ

كانَ الْفَرّانُ عارِفاً بِطِباعِ الْوالِى .

لَمْ يَكُنْ فِى قُدْرَةِ الْفَرّانِ أَنْ يُخالِفَ أَمْرَ هٰذا الْحاكِمِ الْغاشِمِ .

لَمْ يَتَرَدَّدِ الْفَرّانُ فِى الإذْعانِ (طاعَةِ الأَمْرِ وَإنْفاذِهِ) .

أَرْسَلَ الْوَزَّةَ - بَعْدَ إنْضاجِها - إلَى الْوالِى « كَمِيش » .

* * *

بَعْدَ قَلِيلٍ : حَضَرَ صاحِبُ الْوَزَّةِ .

سَأَلَ الْفَرّانَ أَنْ يُعْطِيَهُ الْوَزَّةَ الْمَشْوِيَّةَ .

* * *

تَظاهَرَ الْفَرّانُ بِالدَّهْشَةِ .

قالَ لِصاحِبِ الْوَزَّةِ مُتَحَسِّرًا :

« آهِ ، لَوْ عَلِمْتَ ما حَدَثَ . إِنَّ لِوَزَّتِكَ - يا سَيِّدِي - لَنَبَأً عَجِيبًا ، لَمْ أَرَ لَهُ مَثِيلًا طُولَ عُمْرِي ! »

قالَ صاحِبُ الْوَزَّةِ : « أَيَّ نَبَإٍ تَعْنِي ؟ ! »

قالَ الْفَرّانُ :

« ما إِنْ شَوَيْتُ وَزَّتَكَ وَأَنْضَجْتُها ، حَتَّى رَأَيْتُ رُوحَها تَعُودُ إِلَيْها مَرَّةً أُخْرَى .

ما أَظُنُّكَ تُصَدِّقُ أَنَّنِي رَأَيْتُ الْوَزَّةَ تَسْتَرِدُّ الْحَياةَ !

ما أَظُنُّكَ تُصَدِّقُ أَنَّنِي رَأَيْتُها تَنْتَفِضُ بَعْدَ ذَبْحِها وَشَيِّها !

ما أَظُنُّكَ تُصَدِّقُ أَنَّنِي رَأَيْتُها - بِعَيْنَيْ رَأْسِي هاتَيْنِ - تُرَفْرِفُ بِجَناحَيْها ، وَتَمْلَأُ الدُّنْيا جَلَبَةً وَصِياحًا

ما أَظُنُّكَ تُصَدِّقُ أَنَّنِي رَأَيْتُها تَجْرِي مُبْتَهِجَةً بِعَوْدَةِ الْحَياةِ إِلَيْها : تَجْرِي بِسُرْعَةٍ ، لا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ .

حاوَلْتُ اللَّحاقَ بِالْوَزَّةِ . لَمْ أَسْتَطِعْ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا .

يا لَهَوْلِ ما رَأَيْتُ !

مَنْ كانَ يُصَدِّقُ أَنَّ الْوَزَّةَ تَطِيرُ بَعْدَ ذَبْحِها وَشَيِّها ؟ »

٥ - قُدْرَةُ اللهِ

غَضِبَ صاحِبُ الْوَزَّةِ مِمَّا سَمِعَ . حَسِبَ الْفَرَّانَ يَمْزَحُ أَوَّلَ الأَمْرِ . لَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى مُزاحِ الْفَرَّانِ .

صَرَخَ مُغْضَبًا حانِقًا . قاطَعَ الْفَرَّانَ قائِلًا :

« أَلا تَكُفُّ عَنْ مُزاحِكَ السَّمِيجِ ، أَيُّها الْماجِنُ الثَّرْثارُ ؟ ! »

قالَ الْفَرَّانُ : « لَسْتُ ماجِنًا وَلا مازِحًا .

إِنَّ ما أُخْبِرُكَ بِهِ حَقٌّ صُراحٌ : حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ وَلا مُزاحَ . اللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي - فِيما أَقُولُ - جادٌّ أَصْدَقَ الْجِدِّ . »

* * *

اِشْتَدَّ غَضَبُ الرَّجُلِ . سَأَلَ الْفَرَّانَ مُسْتَنْكِرًا :

« أَيَّ عَبَثٍ تَرْوِي ؟ ! أَيَّ هَذَيانٍ تَحْكِي ؟ !

أَلا تَسْتَحِي مِمَّا تَقُولُ ؟ »

قالَ الْفَرَّانُ : « ما أَنا بِعابِثٍ وَلا مازِحٍ .

إِنِّي لَيُدْهِشُنِي ما يَبْدُو عَلَيْكَ مِنَ الثَّوْرَةِ وَالْغَضَبِ .

لَسْتُ أَرَى فِي تَقْرِيرِ الْحَقِيقَةِ ما يُلامُ عَلَيْهِ الإِنْسانُ ! »

قالَ صاحِبُ الْوَزَّةِ : « إِذا لَمْ تَكُنْ عابِثًا وَلا مازِحًا ، فَأَنْتَ بِلا رَيْبٍ مَخْبُولٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، أَوْ لِصٌّ مَفْتُونٌ . »



قالَ الْفَرّانُ :

« ما بالُكَ تَتَعَجَّلُ فِي لَوْمِي ، وَتُسْرِفُ فِي شَتْمِي ؟

ماذا يَرِيبُكَ مِنِّي ؟ شَدَّ ما أَسْرَفْتَ فِي إِساءَةِ الظَّنِّ بِي .

أَلَسْتَ مُؤْمِنًا بِقُدْرَةِ اللهِ ؟ كَيْفَ تَسْتَكْثِرُ عَلَى قُدْرَتِهِ شَيْئًا ؟

هَلْ يُخامِرُكَ شَكٌّ فِي أَنَّهُ - سُبْحانَهُ - يُحْيِي الْعِظامَ

وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ فِيمَ الْعَجَبُ إِذَنْ ؟ »

* * *

قالَ صاحِبُ الْوَزَّةِ :

« وَيْحَكَ ، أَيُّها الْمائِقُ الْغَبِيُّ ! أَلا تَتَدَبَّرُ ما تَقُولُ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « ما لَكَ تَبْدُو مُتَحَيِّرًا مَشْدُوهًا ؟ »

قالَ صاحِبُ الْوَزَّةِ : « ما أَراكَ إِلّا مُلْتاثًا أَوْ مَعْتُوهًا ! »

قالَ الْفَرّانُ : « وَيْلَكَ ! أَتَشُكُّ فِى قُدْرَةِ اللهِ ؟ ! »

صَرَخَ صاحِبُ الْوَزَّةِ قائِلًا :

« أَلا تَكُفُّ عَنْ هَذَرِكَ !

أَلا تُحاسِبُ نَفْسَكَ عَلَى ما يَفُوهُ بِهِ لِسانُكَ ؟

كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى اتِّهامِى ، أَيُّها الْمُغالِطُ الْكَبِيرُ ؟

كَيْفَ تَقُولُ إِنَّنِى غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِقُدْرَةِ اللهِ ؟ !

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَقُولُها !

أَنَسِيتَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا !

أَنَسِيتَ أَنَّهُ - سُبْحانَهُ - خَلَقَ لِطَبائِعِ الْأَشْياءِ قَوانِينَ لا تَتَخَطّاها ، وَنَتائِجَ لا تَحِيدُ عَنْها وَلا تَتَعَدّاها ؟

سُنَّةَ اللهِ فِى خَلْقِهِ : وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا . »

٦ – تَجَمْهُرُ النَّاسِ

تَظاهَرَ الْفَرّانُ بِالْغَضَبِ مِمَّا سَمِعَ . رَمَى صاحِبَ الْوَزَّةِ بِالضَّلالِ . اتَّهَمَهُ بِالزَّيْغِ وَضَعْفِ الْعَقِيدَةِ . انْطَلَقَ يُعَنِّفُهُ عَلَى ما زَلِقَ بِهِ لِسانُهُ . طالَ الْحِوارُ بَيْنَ الْفَرّانِ وَصاحِبِ الْوَزَّةِ . تَجَمَّعَ النَّاسُ حَوْلَهُما .

* * *

سَأَلَهُما النَّاسُ عَنْ سَبَبِ مُشاجَرَتِهِما .

رَوَى لَهُمْ صاحِبُ الْوَزَّةِ قِصَّتَهُ مَعَ الْفَرّانِ .

* * *

غَضِبَ النَّاسُ عَلَى الْفَرّانِ ، حِينَ سَمِعُوا الْقِصَّةَ .

كادُوا يَتَمَيَّزُونَ مِنَ الْغَيْظِ . تَنادَرَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ مُتَهَكِّمِينَ .

انْدَفَعَ إِلَيْهِ الْآخَرُونَ صاخِبِينَ مُتَوَعِّدِينَ .

٧ – لَكْمَةٌ عَنِيفَةٌ

تَكاثَرَ الْجَمْعُ . ضَيَّقُوا الْخِناقَ عَلَى الْفَرّانِ .

كادُوا يَكْتُمُونَ أَنْفاسَهُ . ساوَرَ الْخَوْفُ الْفَرّانَ . خَشِيَ سُوءَ الْعاقِبَةِ . الْتَمَسَ سَبِيلَهُ إِلَى الْهَرَبِ . كَيْفَ الْخَلاصُ مِنْ هٰذا الْمَأْزِقِ ؟



لا سَبِيلَ إِلَى ذٰلِكَ ! سُدَّتْ مَنافِذُ الطُّرُقِ دُونَهُ !

اِستَوْلَى عَلَيْهِ الْيَأْسُ !

اِنْدَفَعَ إِلَى الْجَمْعِ كَالْمَجْنُونِ !

لَكَمَ أَقْرَبَ الثَّائِرِينَ إِلَيْهِ .

كانَتْ لَكْمَةً عَنِيفَةً ، أَطارَتْ إِحْدَى أَسْنانِهِ .

* * *

اِشْتَدَّ هِياجُ النّاسِ مِمّا رَأَوْا . تَأَلَّبُوا عَلَى الْفَرّانِ (تَجَمَّعُوا عَلَيْهِ) . أَوْسَعُوهُ صَفْعًا بِالأَكُفِّ ، وَلَكْمًا بِالأَيْدِى ، وَرَكْلًا بِالأَقْدامِ . كادَ الْفَرّانُ يَهْلِكُ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ .

٨ — هَرَبُ الْفَرّانِ

زادَتْ حَيْرَةُ الْفَرّانِ . اِشْتَدَّ بِهِ الْحَرَجُ . سُدَّتْ أَبْوابُ الْفَرَجِ

دَفَعَهُ حُبُّ الْحَياةِ ، إِلَى الاِسْتِماتَةِ فِى طَلَبِ النَّجاةِ .

اِنْدَفَعَ مِنْ بَيْنِ الْجَمْعِ الْحانِق كَالسَّهْمِ الْمارِقِ .

أَمْعَنَ فِى الْهَرَبِ ، وَأَمْعَنَ مُطارِدُوهُ فِى الطَّلَبِ .

٩ — فِى أَعْلَى الْمِئْذَنَةِ

اِنْتَهَى بِهِ الْفِرارُ إِلَى مَسْجِدٍ ، فِى نِهايَةِ الطَّرِيقِ .

حاوَلَ أَنْ يَجِدَ فِيهِ مَأْمَنًا . اِتَّجَهَ إِلَى مِئْذَنَةِ الْمَسْجِدِ .

صَعِدَ دَرَجاتِها وَثْبًا وَقَفْزًا . رَأَى النّاسَ يُلاحِقُونَهُ . رَآهُمْ يَصْعَدُونَ إِلَى الْمِئْذَنَةِ . زادَ ارْتِباكُ الْفَرّانِ . اِشْتَدَّتْ حَيْرَتُهُ .

لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَصْنَعُ ؟

أَمامَهُ أَمْرانِ ، لا ثالِثَ لَهُما . أَمْرانِ أَحْلاهُما مُرٌّ :

إِمّا أَنْ يُواجِهَ الثّائِرِينَ ؛ فَيَمُوتَ صَفْعًا بِالأَكُفِّ ، وَلَكْمًا بِالأَيْدِى ، وَرَفْسًا بِالأَقْدامِ !



وَإِمَّا أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ مِنْ مِئْذَنَةِ الْمَسْجِدِ الْعَالِيَةِ ؛ فَيَمُوتَ مُتَرَدِّيًا . لا سَبِيلَ إِذَنْ إِلَى الْفِرارِ ؛ فَأَيَّ الْمِيتَتَيْنِ يَخْتارُ ؟!

أَنْساهُ فَزَعُهُ مِنَ النّاسِ ارْتِفاعَ الْمِئْذَنَةِ . قَفَزَ إِلَى الْأَرْضِ .

ما أَعْجَبَ الْمُفاجَأَةَ ! لَمْ يَهْلِكِ الشَّقِيُّ . قَدَرٌ نَجّاهُ . هٰكَذا أَرادَ اللهُ ! نَجْتُهُ عَجِيبَةٌ مِنَ الْعَجائِبِ . أَنْقَذَتْهُ الْمُصادَفَةُ مِنْ هَلاكٍ مُحَقَّقٍ .

* * *

تَسْأَلُنِي كَيْفَ نَجا الشَّقِيُّ ؟

سَقَطَ عَلَى أَحَدِ الْمارَّةِ .

كانَتْ سَقْطَةً قاتِلَةً ، صَرَعَتِ الرَّجُلَ وَأَهْلَكَتْهُ ،

وَحَفِظَتْ حَياةَ الْفَرَّانِ وَنَجَّتْهُ .

١٠ – مُدْيَةُ الْجَزّارِ

تَضاعَفَ سُخْطُ النّاسِ

بَلَغَ بِهِمُ الْغَيْظُ والْحَنَقُ كُلَّ مَبْلَغٍ .

تَضاعَفَ ارْتِباكُ الْفَرّانِ : كَيْفَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ غائِلَةَ الثّائِرِينَ ؟!

حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ . رَأَى دُكّانَ جَزّارٍ .

شافَ أَمامَهُ مُدْيَةً (سِكِّينَةً) .

خَطِفَ السِّكِّينَةَ .

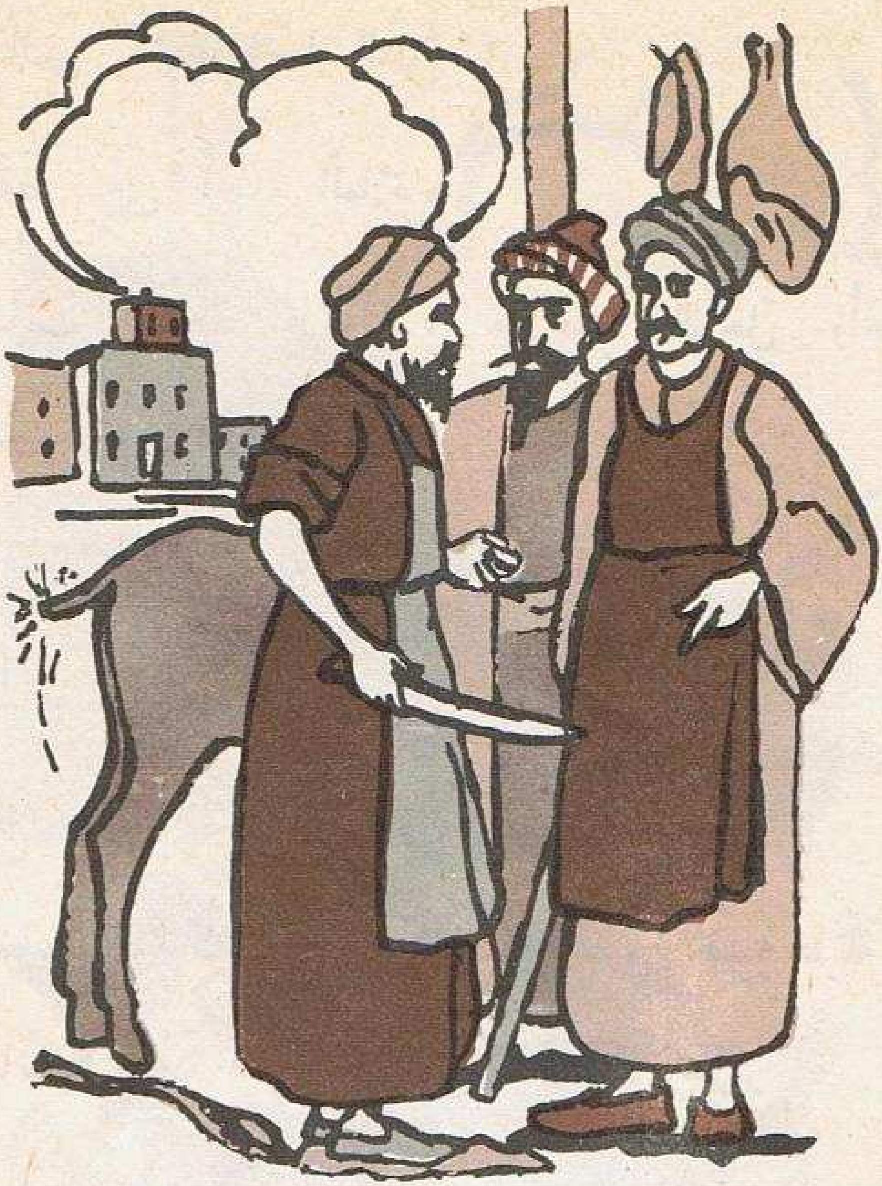
أَرادَ أَنْ يُخيفَ النّاسَ بِها ، وَيُبْعِدَهُمْ عَنْهُ .

أَرادَ أَنْ يَشُقَّ لَهُ طَرِيقًا فِي زَحْمَتِهِمْ

تَظاهَرَ بِالْجُنُونِ .

لَوَّحَ بِالسِّكِّينِ فِي الْهَواءِ .

كانَ حِمارِي قَرِيبًا مِنْهُ .



أَهْوَى بِمُدْيَتِهِ عَلَى ذَيْلِ حِمارِي

قَطَعَتِ الْمُدْيَةُ ذَيْلَ الْحِمارِ الْمِسْكِينِ .

فَزِعَ النَّاسُ مِنَ السِّكِّينِ . تَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ شَيْئًا .

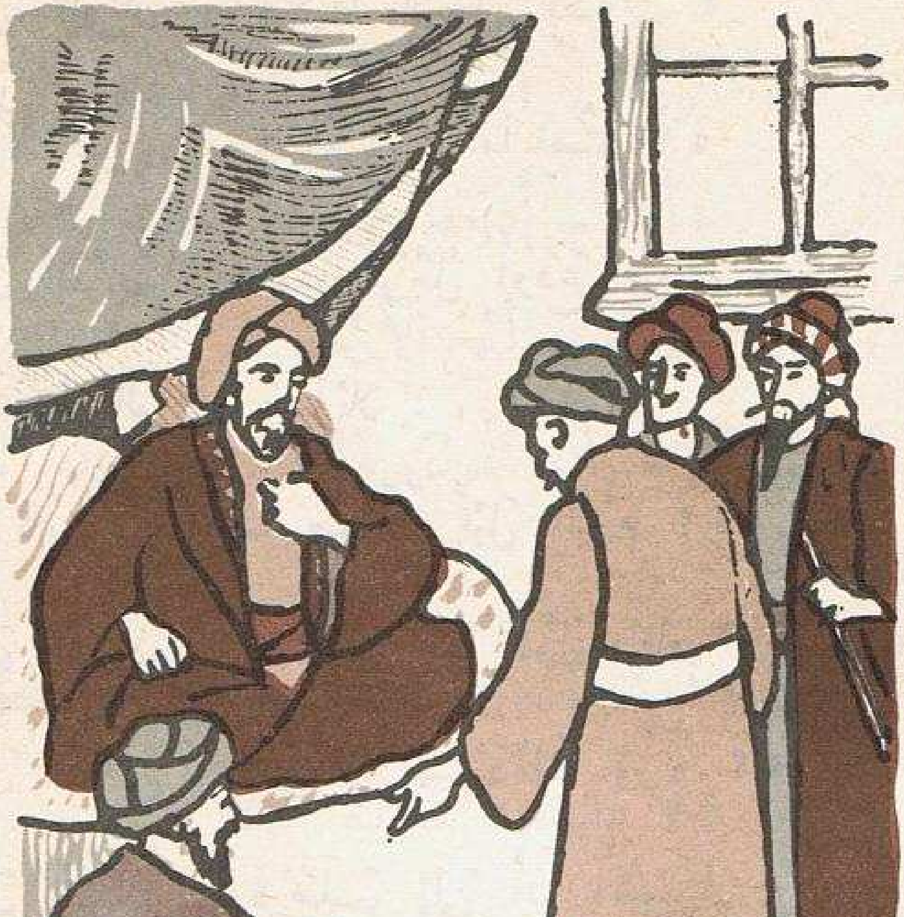
فُرْصَةٌ أَتاحَتْ لَهُ سَبِيلَ الْفِرارِ .

اِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي أَثَرِهِ . ظَلَّ يَجْرِي ، والنَّاسُ يُلاحِقُونَهُ

اِنْتَهَى بِهِ الْفِرارُ إِلَى دارِ والِينا : « كَمِيشٍ »

بَيْنَ يَدَىِ الْوالِى

١ – كِذْبَةُ الْفَرّانِ



اِسْتَقَرَّ الْجَمْعُ فِى دارِ الْوالِى .

مَثَلُوا (وَقَفُوا) بَيْنَ يَدَىْ « كَمِيشٍ » .

تَظاهَرَ الْوالِى بِالدَّهَشِ مِمّا رَأَى . سَأَلَ عَنِ الْقِصَّةِ

اِنْدَفَعَ الْفَرّانُ وَصاحِبُ الْوَزَّةِ إِلَيْهِ يُحَدِّثانِهِ بِها

* * *

أَشارَ الْوالِي إِلَى الْفَرّانِ أَنْ يَبْدَأَ الْحَديثَ .

قالَ الْفَرّانُ : « لِهٰذا الرَّجُلِ قِصَّةٌ »

سَأَلَهُ الْوالِي : « خَبِّرْنِي : ما قِصَّتُهُ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « هٰذا الرَّجُلُ أَوْدَعَ عِنْدِي وَزَّةً . »

اِبْتَدَرَهُ الْوالِي مُسائِلًا :

« أَكانَتْ بَيْنَكُما صَداقَةٌ قَبْلَ الْيَوْمِ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « كانَ هٰذا أَوَّلَ لِقاءٍ بَيْنَنا . »

قالَ الْوالِي : « فَلِماذا اسْتَوْدَعَكَ وَزَّتَهُ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَشْوِيَها لَهُ . »

صَرَخَ الْوالِي مُتَظاهِرًا بِالْغَضَبِ :

« أَلَمْ تَكُنِ الْوَزَّةُ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ ؟ !

فَكَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى شَيِّها ؟ ! »

قالَ الْفَرّانُ : « كانَتِ الْوَزَّةُ مَذْبُوحَةً . »

قالَ الْوالِي : « هٰكَذا يَجِبُ أَنْ يُقالَ . لِماذا لَمْ تَبْدَأْ حَدِيثَكَ هٰكَذا ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « عَفْوًا - يا سَيِّدِي الْوالِي - عَفْوًا . »

قالَ الْوالِي : «لا بَأْسَ عَلَيْكَ . عَفَوْتُ عَنْكَ .

خَبِّرْنِي ، أَيُّها الْفَرّانُ :

أَيُّكُما ذَبَحَ الْوَزَّةَ : أَنْتَ ، أَمْ هٰذا الرَّجُلُ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : «أَنا لَمْ أَذْبَحْها عَلَى كُلِّ حالٍ ! »

قالَ الْوالِي : « أَتُتْعِبُنِي أَيُّها الأَحْمَقُ !

كانَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ هٰذا ، دُونَ أَنْ تُحْوِجَنِي إِلَى سُؤالِكَ . »

قالَ الْفَرّانُ : « أَخْطَأْتُ - يا سَيِّدِي - فَتَجاوَزْ عَنْ خَطَئِي . »

قالَ الْوالِي : « لا عَلَيْكَ ! عَفَوْتُ عَنْكَ .

خَبِّرْنِي أَيُّها الْفَرّانُ : هَلْ شَوَيْتَ الْوَزَّةَ ؟

هَلْ حَقَّقْتَ لِصاحِبِها رَغْبَتَهُ ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « نَعَمْ ! شَوَيْتُها - يا سَيِّدِي الْوالِيَ - وَأَنْضَجْتُها . »

قالَ الْوالِي : « فَهَلْ أَخَذَها صاحِبُها ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : « كَلّا . لَمْ يَأْخُذْها . »

صَرَخَ الْوالِي مُتَظاهِرًا بِالْغَضَبِ : « ما أَجْدَرَكَ بِالْعِقابِ !

لِماذا حَجَزْتَها ، بَعْدَ أَنْ شَوَيْتَها وَأَنْضَجْتَها ؟

لِماذا لَمْ تَعْجَلْ بِرَدِّ الأَمانَةِ إِلَى صاحِبِها ؟ »

قالَ الْفَرّانُ : «مَهْلًا - يا سَيِّدِي الْوالِيَ - مَهْلًا !»

قالَ الْوالِي : «لا عُذْرَ لَكَ فِي إِبْقائِها ، بَعْدَ شَيِّها وَإِنْضاجِها .

أَلا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَأْمُرُنا بِرَدِّ الْأَماناتِ إِلَى أَصْحابِها ؟»

قالَ الْفَرّانُ : «ما كُنْتُ لِأُخالِفَ لِلّهِ عَهْدًا !»

قالَ الْوالِي : «فَماذا حَدَثَ ؟!»

أَجابَ الْفَرّانُ : «حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبانِ . . شَهِدْتُ ما لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بالِ إِنْسانٍ .»

قالَ الْوالِي :

«ما أَشْوَقَنِي إِلَى سَماعِ ما حَدَثَ . قُلْ ، وَلا تُبْطِئْ .»

أَجابَ الْفَرّانُ : «ما إِنْ نَضِجَتِ الْوَزَّةُ ، حَتَّى رَأَيْتُ ما أَدْهَشَنِي ، وَحَيَّرَ عَقْلِي وَأَذْهَلَنِي .»

قالَ «كَمِيشٌ» :

«خَبِّرْنِي ماذا حَدَثَ ؛ فَقَدْ زِدْتَنِي شَوْقًا إِلَى تَعَرُّفِ قِصَّتِكَ .»

قالَ الْفَرّانُ :

«شَيْءٌ مُتَناهٍ فِي غَرابَتِهِ ، لا عَهْدَ لِلنّاسِ بِرُؤْيَتِهِ .»

اِبْتَسَمَ «كَمِيشٌ» ، لِيُشَجِّعَ الْفَرّانَ عَلَى الْمُضِيِّ فِي أُكْذُوبَتِهِ ؛ ثُمَّ قالَ :

« ما أَكْثَرَ ما تُطالِعُنا بِهِ الأَيّامُ مِنْ عَجائِبَ وَغَرائِبَ !

قُلْ وَلا تَخْشَ بَأْسًا ! خَبِّرْنِي : ماذا رَأَيْتَ ؟ »

قالَ الفَرّانُ : « رَأَيْتُ الوَزَّةَ . . . . »

قالَ « كَمِيشٌ » : « تَعْنِي ذاتَ الجَناحَيْنِ ؟ »

قالَ الفَرّانُ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدِي . رَأَيْتُ الوَزَّةَ المَذْبُوحَةَ . »

قالَ « كَمِيشٌ » : « ماذا حَدَثَ لَها ؟ »

قالَ الفَرّانُ : « رَأَيْتُ الرُّوحَ تَعُودُ إِلَى جِسْمِها ، بَعْدَ أَنْ فارَقَتْها . نَعَمْ ! رَأَيْتُ الحَياةَ تَدِبُّ فِيها ، بَعْدَ أَنْ ذَبَحْتُها وَشَوَيْتُها وَأَنْضَجْتُها ! »

صَرَخَ الوالِي مُهَلِّلًا :

« اللهُ أَكْبَرُ ! اللهُ أَكْبَرُ ! ما أَعْجَبَ صُنْعَ اللهِ !

ما أَعْظَمَ قُدْرَتَهُ ! هَلْ عادَ إِلَيْها رِيشُها المَنْتُوفُ ؟ »

تَشَجَّعَ الفَرّانُ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى الوالِيَ يَهَشُّ لِأُكْذُوبَتِهِ ، وَيُرَحِّبُ بِفِرْيَتِهِ . قالَ الفَرّانُ :

« سُرْعانَ ما رَأَيْتُ الوَزَّةَ المَذْبُوحَةَ المَشْوِيَّةَ الحَنِيذَ (الَّتِي نَضِجَ لَحْمُها) تَعُودُ إِلَى الحَياةِ ، ثُمَّ تَكْتَسِي رِيشًا مِثْلَ رِيشِها الأَوَّلِ . »

قالَ الْوالِي : «يا سُبْحانَ اللهِ ! سُبْحانَهُ سُبْحانَهُ !

ما أَجَلَّ قُدْرَتَهُ وَأَعْظَمَ شَأْنَهُ !

ثُمَّ ماذا ؟ أَتِمَّ قِصَّتَكَ . قُلْ ، وَلا تَخَفْ .»

قالَ الْفَرّانُ : «رَأَيْتُها تَقِفُ عَلَى قَدَمَيْها ، وَتُرَفْرِفُ بِجَناحَيْها ، وَتَمْلَأُ الدُّنْيا صَخَبًا وَصِياحًا .»

قالَ الْوالِي : «تَعالَتْ قُدْرَةُ اللهِ بِرَبِّكَ إِلَّا ما أَحْضَرْتَ هٰذِهِ الْوَزَّةَ الْعَجِيبَةَ ؛ لِأُمَتِّعَ نَظَرِي بِرُؤْيَتِها .»

قالَ الْفَرّانُ : «كانَ يَسُرُّنِي ذٰلِكَ ، لَوْلا ......»

بادَرَهُ الْوالِي مُقاطِعًا : «لَوْلا ماذا ، يا هٰذا ؟»

قالَ الْفَرّانُ : «لَوْلا أَنَّ الْوَزَّةَ أَسْرَعَتْ بِالْهَرَبِ .. جَرَتْ بِأَسْرَعَ مِمّا قَدَّرْتُ .»

قالَ الْوالِي : «لِماذا لَمْ تَتْبَعْها ، أَيُّها الْكَسْلانُ ؟»

قالَ الْفَرّانُ : «عَقَدَتِ الْحَيْرَةُ والدَّهْشَةُ لِسانِي . تَخاذَلَتْ قُوايَ . جَمَدْتُ فِي مَكانِي . تَسَمَّرَتْ قَدَمايَ .»

قالَ الْوالِي : «الْحَقُّ مَعَكَ . يَظْهَرُ أَنَّكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِأَمْثالِ هٰذِهِ الْغَرائِبِ !»

٢ — غَضَبُ الْوالِي

لمْ يُطِقْ صاحِبُ الْوَزَّةِ صَبْرًا عَلَى هٰذِهِ الْمَهْزَلَةِ .

اِلْتَفَتَ إِلَى الْوالِي مُتَبَرِّمًا . سَأَلَهُ مُسْتَنْكِرًا :

« كَيْفَ يُصَدِّقُ السَّيِّدُ الْوالِي مِثْلَ هٰذِهِ الأَقْوالِ ؟ !

كَيْفَ يَجُوزُ عَلَى ذَكائِهِ هٰذا الْمُحالُ ؟ !

كَيْفَ تَسْتَرِدُّ الْوَزَّةُ الْحَياةَ بَعْدَ ذَبْحِها ؟

كَيْفَ يَصِحُّ فِي الأَذْهانِ أَنْ تَطِيرَ الْوَزَّةُ ، بَعْدَ أَنْ تُشْوَى وَتَنْضَجَ عَلَى النّارِ ؟ »

تَظاهَرَ الْوالِي بِالدَّهْشَةِ مِمّا سَمِعَ . صَرَخَ مُسْتَنْكِرًا غاضِبًا :

قالَ لِصاحِبِ الْوَزَّةِ : « كَيْفَ تَقُولُ ، أَيُّها الْجاحِدُ الْمَفْتُونُ ؟

أَيُّ جَهْلٍ وَحَماقَةٍ وَجُنُونٍ ؟

شَدَّ ما طَوَّحَتْ بِكَ الْجَهالَةُ الْعَمْياءُ ، والْغَباوَةُ النَّكْراءُ !

كَأَنَّما تَرْتابُ فِي قُدْرَةِ اللهِ !

الْوَيْلُ لَكَ ، أَيُّها الْجاحِدُ الْوَقّاحُ . كَيْفَ سَوَّلَ لَكَ الشَّيْطانُ أَنْ تَكْفُرَ بِخالِقِنا الْعَظِيمِ : فالِقِ الْحَبِّ والنَّوَى ، بارِئِ الأَرْضِ والسَّما ، مُحْيِي الْمَوْتَى وَباعِثِ مَنْ فِي الْقُبُورِ ؟ »

قالَ صاحِبُ الْوَزَّةِ : « حاشا أَنْ أَرْتابَ فِي قُدْرَةِ اللهِ ! وَلٰكِنْ .... »

٣ – جزاءُ الْمكابرةِ

ثارتْ ثائرةُ الوالِى ، وَجُنَّ جُنونُهُ . أَبَى عَلَى صاحبِ الْوَزَّةِ أَنْ يُتِمَّ حديثَهُ . اِبْتَدَرَهُ مُقاطِعًا : « أَكُفْرٌ بَعْدَ إِيمانٍ ؟ أَتمادٍ فِى الضَّلالَةِ والْبُهْتانِ ؟ !

اسْتِهانةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ الْعَلِىِّ الْعَظيمِ ؟ !

كَيْفَ تَقولُ ، أَيُّها الْمَخْبُولُ ؟ ما أَجْدَرَكَ أَنْ تُحَرَّقَ فِى النّارِ !

أَتَسْتَكْثِرُ عَوْدَةَ الْحَيـــاةِ إِلَى الْوَزَّةِ عَلَى خالِقِ السَّمٰواتِ والأَرَضينَ ، وَواهِبِ الْحَياةِ لِكُلِّ مَنْ فِى الْوُجُودِ : مِنْ إِنْسٍ وَجانٍّ ، وَمَلَكٍ وَشَيْطانٍ ، وَنَباتٍ وَحَيَوانٍ ؟

لا بُدَّ أَنْ تَدفَعَ لِهٰذِهِ الْجُرْأَةِ ثَمنًا يَرْدَعُكَ ، وَتَتَلَقَّى - عَلَى يَدَى - دَرْسًا يَنْفَعُكَ ؛ حَتَّى لا تَعُودَ لِمِثْلِها أَبَدًا . »

اِرْتَبَكَ صاحِبُ الْوَزَّةِ ، واضْطَرَبَ . أَدْرَكَ أَنَّ الْوالِىَ مُنْساقٌ فِى ضَلالِهِ ، مُسْتَسْلِمٌ لِهواهُ . تَحَيَّرَ فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ ؟ !

* * *

هُنا نَطَقَ الْوالِى بِحُكْمِهِ الْجائِرِ ! أَتَدْرِى كَيْفَ حَكَمَ ؟ !

أَمَرَ بِتَغْريمِ صاحِبِ الْوَزَّةِ عَشَرَةَ دَنانيرَ ، جَزاءً لَهُ عَلَى عِنادِهِ وَمُكابَرَتِهِ ، وَإِصْرارِهِ عَلَى الْمُطالَبَةِ بِحَقِّهِ وَجُرْأَتِهِ .

٤ - السِّنُّ بِالسِّنِّ

اِلْتَفَتَ الْوالِي « كَمِيشْ » إِلَى الْخَصْمِ الثَّانِي .

نَظَرَ إِلَيْهِ مُتَجَهِّمًا . سَأَلَهُ مُتَهَكِّمًا :

« وَأَنْتَ الآخَرُ : ما قِصَّتُكَ ؟ »

أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ بِما شَهِدَ .

نَظَرَ إِلَيْهِ الْوالِي فِي ازْدِراءٍ واحْتِقارٍ . قالَ لَهُ فِي سُخْرِيَةٍ واسْتِنْكارٍ : « ما رَأَيْتُ أَقَلَّ أَدَبًا ، وَلا أَكْثَرَ فُضُولًا !

رَجُلانِ اخْتَصَما فِي أَمْرٍ يَعْنِيهِما ، وَتَنازَعا فِي قَضِيَّةٍ تَخُصُّهُما ، وَلا تَعْنِي سِواهُما .

كَيْفَ سَوَّلَتْ (زَيَّنَتْ) لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُما ؟

كَيْفَ ارْتَضَيْتَ أَنْ تَتَحَدَّانِي ، وَتَغْتَصِبَ سُلْطانِي ؟

شَدَّ ما دَفَعَكَ الْغُرُورُ إِلَى مَواقِفِ التَّهْلُكَةِ !

عَلَى أَنَّنِي سَأَتَجاوَزُ - فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ - عَنْ إِساءَتِكَ ، بِرَغْمِ سُوءِ نِيَّتِكَ ، وَقُبْحِ فَعْلَتِكَ .

سَتَرَى أَنَّنِي لَنْ أُفْلِتَ الْجانِيَ مِنَ الْعِقابِ .

الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ! لا بُدَّ أَنْ آخُذَ لَكَ بِحَقِّكَ مِنْهُ .

لا بُدَّ مِنْ إِنْصافِكَ ، عَلَى كُلِّ حالٍ .

* * *

الفَرّانُ - فِيما تقولُ - أَهْوَى عَلَى صُدْغِكَ بِلَكْمَةٍ واحِدَةٍ . لَكْمَةُ الفَرّانِ كانَتْ شَدِيدَةً قاسِيَةً ، أَطارَتْ لكَ سِنًّا واحِدَةً مِنْ أَسْنانِكَ .

إِذَنْ لا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الفَرّانُ جَزاءَ فَعْلَتِهِ الشَّنْعاءِ .

مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِ نَفْسَ الاعْتِداءِ .

لِذٰلِكَ : حَكَمْنا لَكَ أَنْ تَنْتَصِفَ مِنْ غَرِيمِكَ : أَنْ تُعاقِبَهُ بِمِثْلِ ما صَنَعَ .

حَكَمْنا لَكَ : أَنْ تَلْكُمَهُ لَكْمَةً واحِدَةً عَلَى صُدْغِهِ ، كَما لَكَمَكَ عَلَى صُدْغِكَ لَكْمَةً واحِدَةً ؛ عَلَى شَرْطِ أَنْ تُسْقِطَ سِنًّا مِنْ أَسْنانِهِ ، تُماثِلُ السِّنَّ الَّتِي أَسْقَطَها لَكَ .

* * *

بَقِيَ أَنْ تَعْلَمَ : أَنَّنا لَنْ نُعْفِيَكَ مِنَ العِقابِ ، إِذا عَجَزْتَ عَنْ تَنْفِيذِ هٰذا الحُكْمِ كامِلًا .

أَتَدْرِي : ماذا أَعْنِي ؟

أَعْنِي : يَجِبُ أَنْ تَنْتَهِيَ اللَّكْمَةُ الواحِدَةُ بِإِسْقاطِ سِنٍّ واحِدَةٍ مِنْ أَسْنانِ غَرِيمِكَ

كَما انتَهَتْ لَكْمَتُهُ الْواحِدَةُ بِإِسْقاطِ سِنٍّ واحِدَةٍ مِنْ أَسْنانِكِ ، تُماثِلُ السِّنَّ الَّتِي أَسْقَطَها مِنْ فَمِكَ .

فَإِذا عَجَزَتِ اللَّكْمَةُ الْواحِدَةُ عَنْ إِسْقاطِ مِثْلِ تِلْكَ السِّنِّ الَّتِي أَسْقَطَها لَكَ ، أَوِ انْتَهَتْ بِإِسْقاطِ سِنٍّ أُخْرَى مِنْ أَسْنانِهِ ، فالْوَيْلُ لَكَ والْهَلاكُ ! »

٥ – تحامُلُ الْوالِي

أَدْرَكَ الرَّجُلُ مَدَى تَحامُلِ الْوالِي وانْحِرافِهِ عَنِ الْجادَّةِ (مَيْلِهِ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ) .

يَئِسَ الرَّجُلُ مِنْ عَدْلِ « كَمِيشٍ » وَإِنْصافِهِ .

أَعْلَنَ نُزُولَهُ عَنْ حَقِّهِ مُرْغَمًا صاغِرًا .

* * *

تَمادَى « كَمِيشٌ » فِي تَعَسُّفِهِ وَإِرْهاقِهِ . قالَ :

« الرَّحْمَةُ تُوجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَتَرَفَّقَ بِكَ .

لَنْ نَشْتَطَّ فِي مُحاسَبَتِكَ . قَبِلْنا نُزُولَكَ عَنْ حَقِّكَ .

لٰكِنَّ لِلْعَدالَةِ حُقُوقًا لا سَبِيلَ إِلَى التَّهاوُنِ فِيها .

* * *

لا تَنسَ ـ أيُّها المُتَسرِّعُ الأحمَقُ ـ أنَّكَ اغتَصَبْتَ حقَّنا ، وانتَزَعتَ سُلْطانَنا ؛ حِينَ سوَّلَتْ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَرتَقِيَ إلى مَرتَبةِ القضاءِ بَيْنَ المُتَنازِعَيْنِ .

لا تَنسَ أَنَّ هٰذِهِ جَريمةٌ لا سَبيلَ إلى إعفائِكَ مِنْ عِقابِها .

عَلَى أَنَّنا سَنَترَفَّقُ بِكَ فِي هٰذِهِ المَرَّةِ .

سَنَكتَفِي بِتَغريمِكَ عَشَرَةَ دَنانيرَ . »

٦ — الخَصْمُ الثَّالِثُ

جاءَ دَوْرُ الغَريمِ الثَّالِثِ الَّذِي قَتَلَ الفَرَّانُ أَخاهُ .

اِلتَفَتَ إِلَيْهِ الوالِي حانِقًا مُغْضَبًا . سَأَلَهُ : فِيمَ أَتَى ؟

قَصَّ عَلَيْهِ الرَّجُلُ تَفْصِيلَ ما حَدَثَ .

تَظاهَرَ الوالِي بِالإصغاءِ إلى حَدِيثِهِ ، والاهتِمامِ بِمأساتِهِ ، حَتَّى انتَهَى مِنْ قِصَّتِهِ . أَقبَلَ عَلَيْهِ يُؤَسِّيهِ ، وَيَتَصَنَّعُ الحُزْنَ والتَّفَجُّعَ لِمَصرَعِ أَخِيهِ .

عَرَفَ الوالِي كَيْفَ يُمَثِّلُ هٰذا الدَّوْرَ فِي بَراعةٍ وَإتقانٍ .

اِلتَفَتَ إلى الفَرَّانِ فِي ثَوْرَةٍ مَسرَحِيَّةٍ جامِحَةٍ . قالَ :

« كَلَّا ، لَنْ تُفلِتَ مِنَ القِصاصِ أَيُّها الجانِي الأَثيمُ . هَيْهاتَ أَنْ أُعْفِيَكَ مِنَ الهَلاكِ . أَنتَ قَتَلْتَ نَفسًا بَرِيئَةً بِغَيرِ حَقٍّ ! »

الْتفتَ الْوالِى إِلَى أَخِى الْقتِيلِ . قالَ :

« اِهْدأْ نفْسًا ، وقرَّ بالًا . لنْ أُقصِّرَ لحْظةً واحِدةً فِى إِنْصافِكَ مِنْ قاتِلِ أَخِيكَ . كُنْ عَلَى ثِقةٍ أَنَّهُ مُلاقٍ جزاءهُ الْعادِلَ . »

* * *

سكتَ الْوالِى قلِيلًا .

الْتفتَ إِلَى الرَّجُلِ مُسْتأْنِفًا حدِيثهُ . قالَ :

« لٰكِنَّ لِى عتْبًا عَلَى أَخِيكَ . إِنَّهُ - يرْحمُهُ اللهُ - أَتَى أَمْرًا لا يُغْتفرُ .

إِنَّهُ ارْتكبَ - بِهٰذا التَّصرُّفِ الْأَحْمقِ - ذنْبيْنِ ، لا ذنْبًا واحِدًا :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ اخْتارَ لِنفْسِهِ أَنْ يجْتازَ هٰذا الطَّرِيقَ فِى الْوقْتِ الَّذِى أَلْقَى الْفرَّانُ بِنفْسِهِ مِنْ أَعْلَى الْمِئْذنةِ .

الثَّانِى : أَنَّه أَنْقذَ بِموْتِهِ الْفُجائِىِّ حياةَ إِنْسانٍ غيْرِ جدِيرٍ بِالْبقاء .

لٰكِنْ ما حِيلتُنا فِى حماقةِ أَخِيكَ الَّتِى دفعتْهُ إِلَى إِنْقاذِ رجُلٍ همَّ بِالِانْتِحارِ ، دُونَ أَنْ يسْتأْذِنهُ فِى إِنْقاذِهِ .

عَلَى كُلِّ حالٍ ، لمْ يعُدْ فِى قُدْرتِنا أَنْ نُحاسِبَ أَخاكَ عَلَى سُوءِ تصرُّفِهِ ، بعْدَ أَنْ آثرَ الْفِرارَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرةِ .

لَمْ يَبْقَ أمامَنا - بَعْدَ أَنْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ - إلا أَنْ نَلْتَمِسَ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةَ والْغُفرانَ ، لِهٰذا الأَخْرَقِ الْمِسْكِينِ .

عَلَى أَنَّ فِي قُدْرَتِنا - لِحُسْنِ حَظِّ الْعَدالَةِ وَحَظِّكَ - أَنْ نَنْتَصِفَ لِأَخيكَ مِنْ قاتِلِه .

هٰذا واجِبُنا أمامَ اللهِ ، وَلَنْ نَتَهاوَنَ فِي أَدائِهِ .

اِطْمَئِنَّ بالًا ، أَيُّها الرَّجُلُ .

حَكَمْنا لكَ أَنْ تَصْنَعَ بِالْفَرّانِ ، مِثْلَ ما صَنَعَ بِأَخيكَ .

أَذِنّا لَكَ فِي أَنْ تَصْعَدَ إِلَى أَعْلَى الْمِئْذَنَةِ ، كَما صَعِدَ قاتِلُ أَخيكَ ، ثُمَّ يَقِفَ الْفَرّانُ - حَيْثُ وَقَفَ أَخُوكَ - ثُمَّ تُلْقِيَ بِثِقْلِكَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْلَى الْمِئْذَنَةِ ، فَتَصْرَعَهُ كَما صَرَعَ أَخاكَ . »

• • •

اِشْتَدَّ فَزَعُ الشّاكي مِمّا سَمِعَ .

أَدْرَكَ مُغالَطَةَ الْوالِي وَتَمادِيَهُ فِي تَحَيُّزِهِ واعْتِسافِهِ .

يَئِسَ مِنْ عَدالَتِهِ وَإِنْصافِهِ ،

لَمْ يَبْقَ أَمامَهُ - مِنْ سَبيلٍ - إِلّا أَنْ يُعْلِنَ تَجاوُزَهُ عَنْ حَقِّهِ .

• • •

انبرى لهُ «كِيشٌ» قائلًا : «لا تنسَ أنَّك أغضبْتَ العدالةَ بتجاوُزِكَ عن حقّ أخيكَ المشرُوعِ ، بعدَ أن حكمْنا لكَ بهِ ، وأصبحَ تنفيذُ العدالةِ واجبًا عليكَ . لا تنسَ أنَّ فِرارَكَ مِنْ أداءِ هذا الواجبِ جريمةٌ لا سبيلَ إلى إعفائِكَ مِنْها .

على أنَّ الرَّحْمةَ تقتضِينا أنْ نترفَّقَ بِكَ ، فلا نسْرِفَ في مُحاسبتِكَ . سنكتفي - في هذهِ المرَّةِ - بتغريمِك عشرةَ دنانيرَ ، جزاءً لكَ على ما أظهرْتَ مِنْ تردُّدٍ وخوفٍ . »

٧ — هربُ « جُحا »

كانَ معِي حِماريَ الأبتَرُ (المَقطُوعُ الذَّيلِ) .

هالَنِي ما رأيْتُ مِنْ أحكامِ الظَّالِمِ المَخبُولِ : «كِيشٍ» .

أيقنْتُ أنَّ والِينا ظالِمٌ شِرّيرٌ ، ومُغالِطٌ كبيرٌ ، أضلَّهُ الغرضُ ، وأعماهُ الهوَى .

فررْتُ - بِحمارِي - وأنا لا أُصدِّقُ بالنَّجاةِ ، مِنْ شرِّ طاغِي الطُّغاةِ . قنِعتُ مِنَ الغنيمةِ بالهربِ ! وجدْتُنِي أقولُ :

«شقِيتُ - إذْ جِئتُ هُنا - شقِيتُ !
حسْبِيَ - مِنْ حظِّيَ - ما لقِيتُ .
رضِيتُ قطْعَ ذيْلِهِ ، رضِيتُ !»

الْجَمَلُ الْهارِبُ

١ – هَلْ كانَ أعْوَرَ ؟

قالَ « أبو الْغُصْنِ جُحا » :

كُنْتُ أسيرُ فِى طَرِيقٍ ذاتَ يَوْمٍ . مَرَّ بِى رَجُلٌ مِنَ الْأعْرابِ يَنْشُدُ بَعِيرَهُ الضَّالَّ ، أعْنِى : يَطْلُبُ جَمَلَهُ الضَّائِعَ ، وَيَبْحَثُ عَنْهُ .

ما إنْ رَآنِى الْأعْرابِىُّ ، حَتَّى بادَرَنِى (عاجَلَنِى) بِالسُّؤالِ عَنْ جَمَلِهِ الضَّالِّ ، قَبْلَ أنْ يَبْدَأَنِى بِالتَّحِيَّةِ .

أنساهُ ألَمُهُ – لِفَقْدِهِ بَعِيرَهُ – واجِبَ السَّلامِ عَلَىَّ .

اِلْتَمَسْتُ لَهُ الْعُذْرَ . لَمْ أعاتِبْهُ عَلَى ذٰلِكَ . قُلْتُ لَهُ :

« خَبِّرْنِى ، أيُّها السَّيِّدُ الْكَرِيمُ : أكانَ الْجَمَلُ أعْوَرَ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . »

٢ – هَلْ كانَ أزْوَرَ ؟

قُلْتُ : « حَمْدًا لِلّٰهِ . أصابَ ظَنِّى ، وَلَمْ يُخْطِئْ حَدْسِى !

خَبِّرْنِى ، يا أخِى ، بارَكَ اللهُ فِيكَ :

أكانَ جَمَلُكَ إذا جرَى يُقبِلُ عَلَى أحدِ جانِبَيْهِ ، عَلَى عادَةِ بَعْضِ الجِمالِ والأفْراسِ الَّتِى لا تَسْتَقِيمُ فِى سَيْرِها ؛ فَيَمِيلُ أَحَدُ جانِبَىْ صَدْرِها عَلَى الجانِبِ الآخَرِ ، إذا سارَتْ ؟

أكانَ جَمَلُكَ هٰكَذا ؟ »

قالَ مُتَلَهِّفًا : « صَدَقْتَ . يا سَيِّدِى . هٰكَذا كانَ جَمَلِى ! »

أطْرَقَ الأعْرابِىُّ بِرَأْسِهِ قَلِيلا . عاوَدَهُ الأَمَلُ فِى العُثُورِ عَلَى الجَمَلِ . قالَ : « إنَّ جَمَلِى كانَ أَزْوَرَ .

كانَ كَما تَقُولُ : يُقْبِلُ - إذا مَشَى - عَلَى جانِبٍ واحِدٍ . »

٣ - هَلْ كانَ أَبْتَرَ ؟

قُلْتُ لِلأَعْرابِىِّ : « أكانَ ذَنَبُهُ مَقْطُوعًا ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . كانَ أَبْتَرَ (مَقْطُوعَ الذَّنَبِ) . »

٤ - هَلْ كانَ شَرُودًا ؟

قُلْتُ لِلأَعْرابِىِّ : « أَكانَ نافِرًا يَجْرِى إلَى غَيْرِ غايَةٍ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . كانَ - عَلَى الأغْلَبِ - شَرُودًا نافِرًا حارِدًا ، لا يَسْتَقِرُّ لَهُ قَرارٌ ، وَلا يَهْدَأُ لَهُ بالٌ ، وَلا يَثْبُتُ - فِى سَيْرِهِ - عَلَى حالٍ . »

٥ - فَرَحُ الأَعْرابِيِّ

أَشْرَقَ وَجْهُ الأَعْرابِيِّ . أَقْبَلَ عَلَيَّ فَرْحانَ مُرَحِّبًا ، مُتَوَدِّدًا إِلَيَّ مُتَحَبِّبًا . خُيِّلَ إِلَيْهِ كاذِبُ الأَمَلِ أَنَّنِي رَأَيْتُ بَعِيرَهُ الشَّارِدَ (جَمَلَهُ الهارِبَ) . تَوَهَّمَ الْمِسْكِينُ أَنَّنِي عارِفٌ بِسِرِّهِ ، وَمُرْشِدُهُ إِلَى مَقَرِّهِ ! . .

قالَ مُتَوَدِّدًا : « صَدَقْتَ - يا سَيِّدِي - فِي كُلِّ ما قُلْتَ . هٰذِهِ صِفَةُ بَعِيرِي . شُكْرًا لَكَ . التَّوْفِيقُ ساقَنِي إِلَيْكَ . الْحَظُّ السَّعِيدُ دَلَّنِي عَلَيْكَ . حَقِّقْ لِي أَمَلِي اُرْدُدْ إِلَيَّ جَمَلِي . لَكَ - عَلَى مَعْرُوفِكَ - أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ، مِنْ رَبِّ العالَمِينَ . »

٦ - دَهْشَةُ الأَعْرابِيِّ

قُلْتُ : « أَنَّى لِي ذٰلِكَ ! كَيْفَ أَدُلُّكَ عَلَيْهِ ؟ أَنا لا أَعْرِفُ عَنْهُ خَبَرًا ، وَلا تَبِعْتُ لَهُ أَثَرًا . »

قالَ مُتَبَرِّمًا ، عابِسَ الْوَجْهِ مُتَجَهِّمًا : « سَأَلْتُكَ بِاللهِ - يا صاحِ - أَنْ تَكُفَّ عَنِ الدُّعابَةِ ، وَتُقْلِعَ عَنِ الْمِزاحِ . »

قُلْتُ : « ما رَأَيْتُ بَعِيرَكَ - قَطُّ - وَلا عَرَفْتُهُ ، وَلا عَثَرْتُ عَلَيْهِ فِي طَرِيقٍ ، وَلا صادَفْتُهُ . »

قالَ : « هٰذا - وَاللهِ - الْمِزاحُ ، أَوِ الْكَذِبُ الصُّراحُ !

إِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذا وَلا ذاكَ ، فَكَيْفَ وَصَفْتَ جَمَلِي فَما أَخْطَأْتَهُ ، إِذا صَحَّ أَنَّكَ ما عَرَفْتَهُ قَطُّ وَلا أَبْصَرْتَهُ ؟ ! »

قُلْتُ : « لَيْسَ لَدَيَّ دَلِيلٌ عَلَى ما أَقُولُ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنَّها فِراسَةُ عابِرِ سَبِيلٍ . »

* * *

ظَلِلْتُ أُحاوِلُ جُهْدِي ، أَنْ أُقْنِعَهُ بِصِدْقِي حَسِبَنِي مُراوِغًا كَذّابًا لَمْ يَزِدْهُ تَوْكِيدِي إِلَّا شَكًّا وارْتِيابًا . أَتْبَعَ اللَّهْفَةَ الْأَسَفَ ضَرَبَ كَفًّا بِكَفٍّ . اِشْتَدَّ عَجَبُهُ مِنْ ثَباتِي عَلَى الْإِصْرارِ ، وَجُرْأَتِي عَلَى الْإِنْكارِ .

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ لائِمًا مُؤَنِّبًا ، سَأَلَنِي ساخِرًا مُتَعَجِّبًا :

« قُلْ لِي بِرَبِّكَ . كَيْفَ تُرِيدُنِي عَلَى الِاقْتِناعِ بِصِدْقِ مَقالِكَ ؟ أَنْتَ تُمْعِنُ فِي كَذِبِكَ ، وَتُوغِلُ فِي ضَلالِكَ : تَصِفُ جَمَلِي ، ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ .

أَلا تَسْتَحِي مِنَ اللَّجاجِ والْمُكابَرَةِ ؟

لا جَرَمَ أَنَّكَ تَحْسَبُنِي مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ والْغَباءِ ، إِذْ تُحاوِلُ أَنْ تُقْنِعَنِي بِهٰذا الْهُراءِ . »

قُلْتُ : « شَدَّ ما تَوَهَّمْتَ ، وَغَلَوْتَ فِي سُوءِ ظَنِّكَ وَأَسْرَفْتَ . »

٧ – بَيْنَ يَدَيِ الْقاضِى

أَبَى الْأَعْرابِىُّ أَنْ يَقْتَنِعَ بِما سَمِعَ .. تَعلَّقَ الْأَعْرابِىُّ بِى مُتَشَبِّثًا ..

لَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً لِلْفَكاكِ مِنْهُ ، غَيْرَ الذَّهابِ إِلَى الْقاضِى .

حِينَ مَثَلْنا بَيْنَ يَدَيِ الْقاضِى ، رَوَيْتُ لَهُ تَفْصِيلَ ما حَدَثَ .

قالَ الْقاضِى : « الرَّجُلُ عَلَى حَقٍّ فِى اتِّهامِهِ إِيَّاكَ ! خَبِّرْنِى إِذا كُنْتَ لا تَزالُ مُصِرًّا عَلَى دَعْواكَ : كَيْفَ عَرَفْتَ صِفاتِهِ ، وَمَيَّزْتَهُ بِعَلاماتِهِ ؟

كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّهُ أَعْوَرُ ، وَلَمْ يَفُتْكَ أَنَّهُ أَزْوَرُ ؟ كَيْفَ تَأَتَّى لَكَ ذٰلِكَ ؟ مَنْ أَنْبَأَكَ أَنَّهُ - إِلَى ذٰلِكَ - أَبْتَرُ ؟ »

٨ – كَيْفَ عَرَفْتُ أَنَّهُ أَعْوَرُ !

قُلْتُ ، والِابْتِسامَةُ لَمْ تُفارِقْ فَمِى :

« الْأَمْرُ غايَةٌ فِى الْيُسْرِ . مَرَرْتُ عَلَى الْعُشْبِ فِى طَرِيقِى . رَأَيْتُ جانِبًا مِنْهُ قَدْ رُعِىَ (أُكِلَ) ، وَجانِبًا قَدْ تُرِكَ .

حِينَئِذٍ عَلِمْتُ أَنَّ الْجَمَلَ الَّذِى رَعَى الْكَلَأَ (أَكَلَ الْعُشْبَ) جَمَلٌ أَعْوَرُ ! »

٩ – كَيْفَ عَرَفْتُ أَنَّهُ أَزْوَرُ !

قالَ الْقاضِي : « هٰذا تَعْلِيلٌ واضِحٌ ، وَدَلِيلٌ راجِحٌ ، وَتَفْسِيرٌ مُقْنِعٌ ، لا يُنْكَرُ وَلا يُدْفَعُ .

خَبِّرْنِي إِذَنْ : كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ الْجَمَلَ أَزْوَرُ ؟ »

قُلْتُ : « رَأَيْتُ أَثَرَ إِحْدَى يَدَيْهِ ثابِتًا ؛ وَأَثَرَ الْأُخْرَى فاسِدًا .

قُلْتُ لِنَفْسِي أُسائِلُها : لِماذا بَدا أَثَرُ الْيَدِ الْأُولَى واضِحًا ثابِتًا ، عَلَى حِينَ لَمْ تَتْرُكْ يَدُهُ الْأُخْرَى عَلامَةً وَلا أَثَرًا ؟

لا بُدَّ أَنَّ الْجَمَلَ أَزْوَرُ ، لَوْلا ازْوِرارُهُ لَظَهَرَتْ آثارُ يَدَيْهِ كِلْتَيْهِما واضِحَةً جَلِيَّةً . لٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ .

لِماذا كانَ هٰذا ؟ لِأَنَّ الْجَمَلَ كانَ يَمِيلُ عَلَى أَحَدِ جانِبَيْهِ ، وَيَرْتَكِنُ بِثِقْلِهِ عَلَى أَحَدِ خُفَّيْهِ ، فَلا يَكادُ الْآخَرُ يَمَسُّ الْأَرْضَ .

لا سَبِيلَ إِلَى تَفْسِيرِ ما رَأَيْتُ بِغَيْرِ ذٰلِكَ التَّعْلِيلِ . »

١٠ – كَيْفَ عَرَفْتُ أَنَّهُ أَبْتَرُ !

قالَ الْقاضِي : « ما أَعْجَبَ فِطْنَتَكَ ، وَأَصْدَقَ فِراسَتَكَ ، وَأَدَقَّ مُلاحَظَتَكَ ! لا جَرَمَ أَنَّهُ ذَكاءٌ يُؤْثَرُ (يُرْوَى وَيُذْكَرُ)

بَقِيَ أَنْ تُخْبِرَنِي : « كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ الْجَمَلَ أَبْتَرُ ؟ »

قُلْتُ : « عَرَفْتُ ذٰلِكَ بِما رَأَيْتُهُ مِنِ اُجْتِماعِ بَعْرِهِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : لَوْ أَنَّ الْجَمَلَ كانَ ذَيَّالًا لَمَصَعَ بِهِ (لَوْ كانَ لَهُ ذَيْلٌ لَحَرَّكَهُ) ، فَلَمْ يَجْتَمِعْ بَعْرُهُ . »

١١ - كَيْفَ عَرَفْتُ أَنَّهُ شَرُودٌ !

قالَ الْقاضِي : « يا لَهُ مِنْ ذَكاءٍ نادِرٍ ، واسْتِدْلالٍ باهِرٍ !

خَبِّرْنِي بِرَبِّكَ : كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ الْجَمَلَ شَرُودٌ نافِرٌ ؟ »

قُلْتُ : « كانَ الْجَمَلُ يَرْعَى فِي الْمَكانِ الَّذِي تَكاثَفَ عُشْبُهُ ، والْتَفَّ نَبْتُهُ ، ثُمَّ يَجُوزُهُ (يَتْرُكُهُ) ذاهِبًا إِلَى مَكانٍ آخَرَ أَقَلَّ مِنْهُ عُشْبًا ، وَأَرَقَّ زَرْعًا ، وَأَخْبَثَ نَبْتًا .

لا عَجَبَ إِذَنْ إِذا عَرَفْتُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ شَرُودٌ . »

١٢ - بَراءَةُ « جُحا »

قالَ الْقاضِي لِلْأَعْرابِيِّ : « الْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ . لَيْسَ فِي الْباطِلِ فائِدَةٌ وَلا مُنْتَفَعٌ ! ها أَنْتَ ذا تَرَى أَنَّ صاحِبَكَ لَمْ يَعْدُ الصَّوابَ ، فِيما أَدْلَى بِهِ مِنْ أَسْباب .

عَلِمَ اللهُ أَنَّ « أَبا الْغُصْنِ » لَمْ يَحِدْ عَنِ الْحَقِّ فِي كُلِّ ما قالَ . ماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ ؟ !

الْآنَ ظَهَرَتْ بَراءَةُ صاحِبِكَ واضِحَةً جَلِيَّةً .

كانَ صِدْقُ فِراسَتِهِ وَدِقَّةُ مُلاحَظَتِهِ ، سَبَبَ إِساءَتِكَ إِلَيْهِ ، وَتَحامُلِكَ عَلَيْهِ ، وَمَصْدَرَ شَقائِهِ وَتَعَنِّيهِ ، وَمَبْعَثَ ارْتِيابِكَ فِيهِ .

اِمْضِ لِشَأْنِكَ ، أَيُّها الرَّجُلُ .

اُطْلُبْ جَمَلَكَ مِنْ سالِبِهِ . لَيْسَ « جُحا » بِغاصِبِهِ ! ».

١٣ — بَعْدَ شَهْرَيْنِ

مَرَّ عَلَى هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الْعَجِيبَةِ شَهْرانِ ... ذاتَ صَباحٍ : بَعَثَ إِلَيَّ الْقاضِي « أَبُو عَلِيٍّ » يَسْتَدْعِينِي لِأَمْرٍ مُهِمٍّ .

أَسْرَعَ إِلَيَّ مُتَوَدِّدًا حِينَ رَآنِي . أَدْنَى مَجْلِسِي مِنْهُ وَحَيَّانِي .
اِلْتَفَتَ إِلَيَّ مُرَحِّبًا وَقالَ : « عَرَضَ عَلَيَّ هٰذانِ الْمُتَخاصِمانِ قِصَّةً لا تَقِلُّ غَرابَتُها عَنْ قِصَّتِكَ مَعَ الْأَعْرابِيِّ .

لَمْ أَجِدْ مَنْدُوحَةً عَنِ الِاسْتِعانَةِ بِرَأْيِكَ قَبْلَ الْفَصْلِ فِيها .
لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبُتَّ الرَّأْيَ قَبْلَ أَنْ أَعْرِضَها عَلَيْكَ . »

١٤ — رائِحَةُ الشِّواءِ

اِلْتَفَتَ الْقاضِي إِلَى الشّاكِي . أَمَرَهُ أَنْ يُدْلِيَ بِقِصَّتِهِ ، وَيُفْضِيَ إِلَيَّ بِظُلامَتِهِ .

قالَ الشّاكِي : « أَنا شَوّاءٌ . سَأَلَنِي هٰذا الرَّجُلُ أَنْ أَشْوِيَ لَهُ شَرِيحَةً (قِطْعَةً مِنَ اللَّحْمِ) ؛ لِيَتَغَدَّى بِها .

رَأَيْتُهُ يَهُمُّ بِالِانْصِرافِ ، بَعْدَ أَنْ أَتْمَمْتُ شَيَّها وَإِنْضاجَها .

سَأَلْتُ الرَّجُلَ : « ما بالُكَ لا تَأْكُلُ ما طَلَبْتَ ؟ »

قالَ : « تَأَخَّرَ عَلَيَّ شِواؤُكَ . اِشْتَدَّ بِيَ الْجُـــوعُ . غَلَبَنِي عَلَى أَمْرِي . تَفَتَّحَتْ نَفْسِي لِلْأَكْلِ عَلَى رائِحَةِ الشِّواءِ اِكْتَفَيْتُ بِأَكْلِ ما لَدَيَّ مِنَ الْخُبْزِ قَفارًا (بِلا إِدامٍ)

والْإِدامُ : ما يُؤْكَلُ بِهِ الْخُبْزُ مِنْ أَلْوانِ الطَّعامِ وَأَصْنافِهِ

لَمْ أَعُدْ فِي حاجَةٍ إِلَى شِوائِكَ ! »

١٥ – ثَمَنُ الشَّرِيحَةِ

قُلْتُ : « ماذا تُرِيدُ مِنْهُ ؟ »

قالَ « أُرِيدُ ثَمَنَ الشَّرِيحَةِ الْمَشْوِيَّةِ الَّتِي أَعْدَدْتُها لِغَدائِهِ . »

قُلْتُ : « هَلْ أَكَلَ مِنْها شَيْئًا ؟ »

قالَ : « لا . »

قُلْتُ : « كَيْفَ إِذَنْ تُطالِبُهُ بِثَمَنِ ما لَمْ يَأْكُلْ ؟ »

قالَ : « اِنْتَفَعَ الرَّجُلُ بِالشَّرِيحَةِ ، واسْتَغَلَّها . »

قُلْتُ : « كَيْفَ تَزْعُمُ هٰذا ؟ إِنَّهُ لَمْ يَأْتَدِمْ بِها ! »

قالَ : « حَسْبُهُ أَنْ شَمَّ قُتارَها ، وَأَكَلَ عَلَى رائِحَةِ شِوائِها . »

قُلْتُ : « كَمْ ثَمَنُ الشَّرِيحَةِ ؟ » قالَ : « رُبْعُ دِينارٍ ! »

١٦ – رَنِينُ الْمالِ

اِلْتَفَتُ إِلَى غَرِيمِ الشَّوَّاءِ قائِلاً :

« هاتِ – يا فَتَى – رُبْعَ دِينارٍ ! »

أَعْطانِيهِ الْفَتَى .

قُلْتُ لِلشَّوَّاءِ : « أَتَرَى رُبْعَ الدِّينارِ هٰذا ! »

قالَ : « نَعَمْ »

قَذَفْتُ بِرُبْعِ الدِّينارِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ .

سَأَلْتُ الشَّوَّاءَ : « أَتَسْمَعُ رَنِينَهُ الْآنَ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . »

أَعَدْتُ رُبْعَ الدِّينارِ إِلَى صاحِبِهِ .

ظَهَرَ الْعَجَبُ عَلَى وَجْهِ الشَّوَّاءِ .

قُلْتُ لَهُ : « فِيمَ الْعَجَبُ ؟ أَلَمْ تَظْفَرْ بِحَقِّكَ مِنْ غَرِيمِكَ ؟ »

قالَ مَذْهُوشًا : « كَيْفَ ؟ أَنا لَمْ أَظْفَرْ مِنَ الْمالِ بِشَيْءٍ ! »

قُلْتُ : « ما أَعْجَبَ أَمْرَكَ !

أَلَمْ تَسْمَعْ رَنِينَ الْمالِ ؟ »

قالَ : « بَلَى ، سَمِعْتُهُ . ما فائِدَتُهُ ؟ »

قُلْتُ : « رَنِينُ الْمالِ ثَمَنُ رائِحَةِ الشِّواءِ ! »

١٧ — الْحَمَّالُ والْحَطَّابُ

ذاتَ يَوْمٍ : اسْتَدْعانِى الْقاضِى لِلْفَصْلِ فِى قَضِيَّةٍ أُخْرَى : قَضِيَّةِ رَجُلَيْنِ اخْتَصَما بَيْنَ يَدَىِ الْقاضِى .

كانَ أَحَدُهُما حَطَّابًا يَحْمِلُ أَثْقالًا مِنَ الْخَشَبِ .

أَقْبَلَ عَلَيْهِ حَمَّالٌ يَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُعاوِنَهُ فِى ذٰلِكَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ .

رَضِىَ الْحَطَّابُ بِاقْتِراحِ الْحَمَّالِ ، شاكِرًا لَهُ مَعُونَتَهُ وَنَجْدَتَهُ .

سَأَلَهُ الْحَمَّالُ : « كَمْ تُعْطِينِى أَجْرًا عَلَى مُساعَدَتِى إِيَّاكَ ؟ »

قالَ الْحَطَّابُ : « لا شَىْءَ ! »

لَمَّا بَلَغا الْمَنْزِلَ ، أَقْبَلَ الْحَمَّالُ عَلَى صاحِبِهِ ، يَسْأَلُهُ أَنْ يُعْطِيَهُ ما وَعَدَهُ بِهِ مِنْ أَجْرٍ .

أَجابَهُ الْحَطَّابُ : « حِينَ سَأَلْتَنِى عَمَّا أُعْطِيكَ ، قُلْتُ لَكَ : لا شَىْءَ ! ماذا تُرِيدُ مِنِّى ؟ »

قالَ الْحَمَّالُ : « أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِى هٰذا اللَّاشَىْءَ الَّذِى وَعَدْتَنِى بِهِ ! »

اِشْتَدَّ اللَّجاجُ بَيْنَ الْحَمَّالِ والْحَطَّابِ .. ذَهَبا إِلَى دارِ الْقَضاءِ .

* * *

رَأْىِ الْقاضِى أَنْ يَتْرُكَ لِىَ الْفَصْلَ فِى هٰذا النِّزاعِ الطَّرِيفِ .

قُلْتُ لِلْحَمّالِ : « أَتَرَى هٰذِهِ الْوِسادَةَ الَّتِى أَمامَكَ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . »

قُلْتُ : « دُونَكَ فارْفَعْها ، وخُذْ ما تَحْتَها .

قالَ الْحَمّالُ حِينَ رَفَعَ الْوِسادَةَ : « لا شَىْءَ - يا سَيِّدِى - تَحْتَ الْوِسادَةِ ! »

قُلْتُ : « خُذْ - مِنْ تَحْتِها - لا شَيْئَكَ الَّذِى تَطْلُبُهُ . إِنَّهُ حَلالٌ لَكَ ، لا يُنازِعُكَ فِيهِ أَحَدٌ ! »

١٨ – حَدِيثُ الْمائِدَةِ

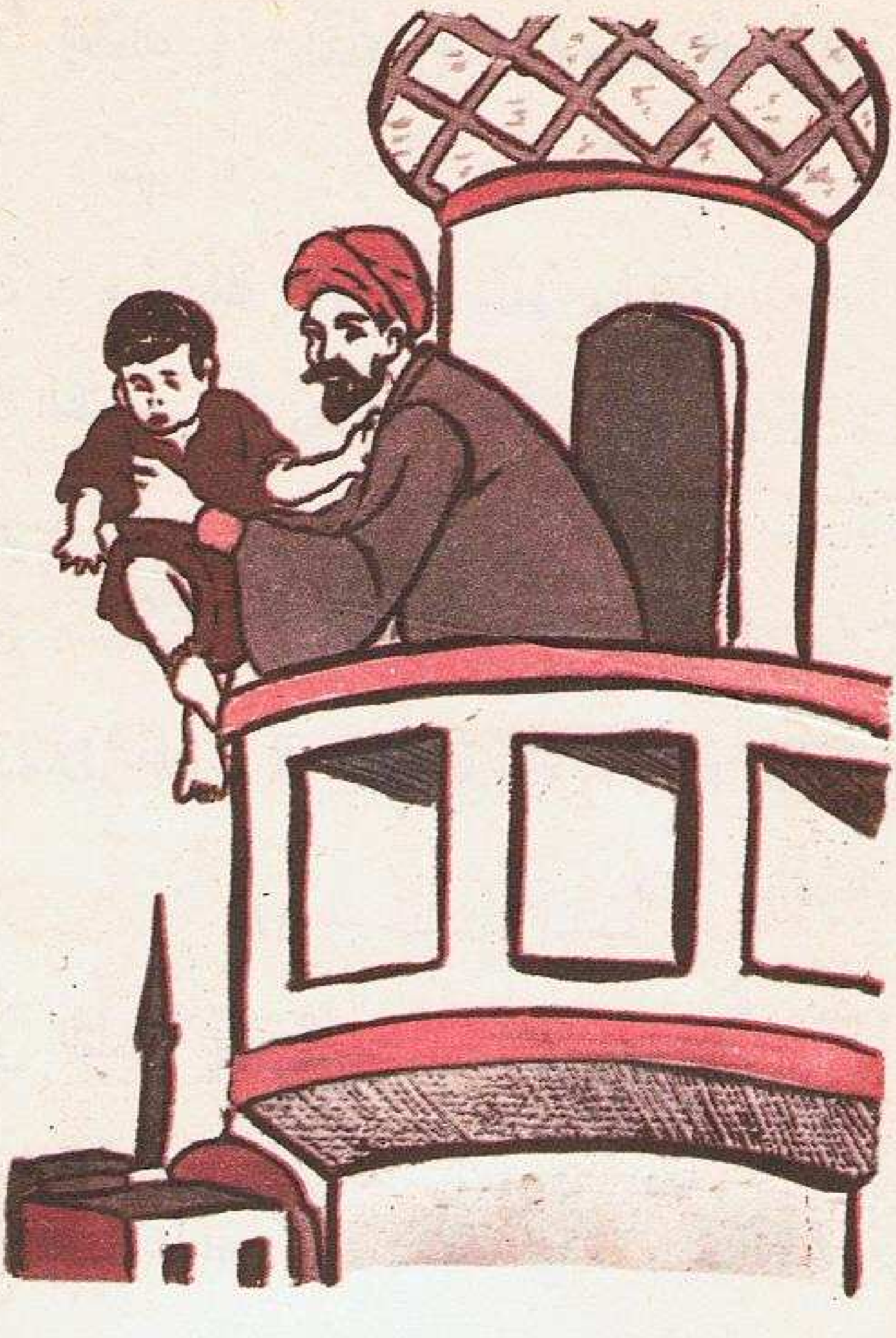
دَعانِى الْقاضِى إِلَى الْغَداءِ .. طابَ لَنا الْمَجْلِسُ .

جَلَسْنا نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الْحَدِيثِ فِيما تَمَيَّزَ بِهِ بَعْضُ النّاسِ مِنْ غَباءٍ .

أَقْبَلَ كِلانا عَلَى صاحِبِهِ يَقُصُّ طَرائِفَ وَمُلَحًا مِمّا صادَفَهُ فِى حَياتِهِ مِنْ غَرائِبِ الأَطْوارِ الَّتِى انْفَرَدَ بِها بَعْضُ مَنْ لَقِيَهُ مِنَ الْحَمْقَى والْمَجانِينِ .

تَنادَرْنا بِحَدِيثِ ذٰلِكَ الْمَخْبُولِ الَّذِى تَشَبَّثَ بِالْحُصُولِ عَلَى « لا شَىْءَ » .

١٩ - خاطِفُ الطِّفْلِ



ذَكَرْتُ لِلْقاضِي - فِيما ذَكَرْتُ - قِصَّةَ أَحَدِ الْمَخْبُولِينَ :
خَطِفَ طِفْلًا صَغِيرًا لِأَحَدِ جِيرانِنا .

جَرَى النّاسُ خَلْفَ الْمَخْبُولِ ، لِيَسْتَنْقِذُوا الطِّفْلَ مِنْهُ . .
ظَلُّوا يُطارِدُونَهُ وَيُلاحِقُونَهُ ضَيَّقُوا عَلَيْهِ سُبُلَ الْهَرَبِ . .
أَوْشَكُوا أَنْ يَلْحَقُوهُ .



أسْرَعَ الْمَخْبُولُ إِلَى الْمَسْجِدِ .. صَعِدَ إِلَى الْمِئْذَنَةِ .

صاحَ يَتَهَدَّدُ النَّاسَ بِإِلْقاءِ الطِّفْـلِ مِنْ أَعْلَى الْمِئْذَنَةِ ،

إذا حاوَلُوا الصُّعُودَ إِلَيْهِ ! ..

تَحَيَّرَ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْمَخْبُولِ : تَحَيَّرُوا ، وَتَحَيَّرْتُ مَعَهُمْ !

لَمْ نَدْرِ : ماذا نَصْنَعُ ؟

وَثَبَتْ إِلَى ذِهْنِي فِـكْرَةٌ مُوَفَّقَةٌ !

٢٠ – لُغَةُ الْمَجانِينِ

أَسْرَعْتُ إِلَى دُكَّانِ نَجَّارٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ .

أَخَذْتُ مِنْشارًا كَبِيرًا .. صِحْتُ بِالْمَخْبُولِ مُتَوَعِّدًا :

« لا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ ؛ إِذا لَمْ تُسْرِعْ بِالنُّزُولِ إِلَيْنا . »

دَبَّ الْخَوْفُ إِلَى قَلْبِ الْمَخْبُولِ . نَظَرَ إِلَيَّ خائِفًا .

سَأَلَنِي مُتَوَجِّسًا مَذْعُورًا : « ماذا أَنْتَ صانِعٌ ؟ »

قُلْتُ : « سَأَنْشُرُ الْمِئْذَنَةَ بِهٰذا الْمِنْشارِ ؛ فَتَهْوِى بِكَ فِى الْحالِ ! »

اِرْتَعَدَ الْمَخْبُولُ مِنْ وَعِيدِى . تَفَزَّعَ مِنْ تَهْدِيدِى .

أَسْرَعَ بِالنُّزُولِ مِنَ الْمِئْذَنَةِ ، أَعادَ إِلَيْنا الطِّفْلَ سالِمًا .

هٰـكَذا تَمَّتِ النَّجاةُ لِلطِّفْلِ بِفَضْلِ هٰذِهِ الْحِيلَةِ الْماكِرَةِ .

لَمْ يَكُنْ فِى الْإِمْكانِ أَنْ يَنْجُوَ الطِّفْلُ مِنْ شَرِّ هٰـذا الْمَخْبُولِ ، إِلَّا بِمُخاطَبَتِهِ بِلُغَتِهِ ، والتَّفاهُمِ مَعَهُ بِطَرِيقَتِهِ ، وَمُجاراةِ عَقْلِهِ السَّقِيمِ ، بِرَأْيٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ ، وَمَنْطِقٍ غَيْرِ قَوِيمٍ .

صَدَقَتِ الْحِكْمَةُ الْقائِلَةُ : « لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ » .

٢١ – هَضْبَةُ الْوادِى

اِعْتَرَضَنِى فِى طَرِيقِى - ذاتَ يَوْمٍ - مائِقٌ (أَحْمَقُ) مَخْبُولٌ ، بادِى الشَّراسَةِ والْغَفْلَةِ .

كُنْتُ أَسيرُ عَلَى هَضْبَةٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى بَعْضِ الأَوْدِيَةِ .
فَزَّعَنِي مَرْآهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اُنْظُرْ أَمامَكَ ، أَيُّها الْقادِمُ .
خَبِّرْنِي : ماذا تَرَى فِي هٰذا الْوادِي السَّحِيقِ (الْعَمِيقِ) ؟ »
قُلْتُ لَهُ واجِمًا : « أَرَى جُثَثًا مُلْقاةً عَلَى أَرْضِ الْوادِي ! »
سَأَلَنِي مُباهِيًا مُفْتَخِرًا :
« أَتَعْرِفُ قاتِلَهُمْ ، أَيُّها الرَّجُلُ ؟ إِنَّهُ الْماثِلُ أَمامَكَ ! »

٢٢ – صَرْعَى الْمَخْبُولِ

لا تَسَلْ عَمَّا عَرانِي مِنَ الذُّعْرِ وَالِارْتِباكِ ، حِينَ سَمِعْتُ مِنْهُ ذٰلِكَ النَّبَأَ الْهائِلَ (الْخَبَرَ الْمُخِيفَ) . اِسْتَوْلَتْ عَلَيَّ الْحَيْرَةُ .
لَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَصْنَعُ ، حِينَ ابْتَدَرَنِي الْمَخْبُولُ قائِلًا :
« أَتَعْرِفُ لِماذا فَتَكْتُ بِهِمْ ، يا صاحِ ؟! إِنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ إِجابَتِي عَنْ سُؤالٍ واحِدٍ أَعْجَزَنِي ، وَشَتَّتَ عَقْلِي وَأَذْهَلَنِي .
كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّكَ إِذا شَفَيْتَ غَلِيلِي بِالْجَوابِ الصَّحِيحِ ، نَجَوْتَ مِنَ الْهَلاكِ ، وَكُتِبَتْ لَكَ السَّلامَةُ . »

٢٣ – الْأَقْمارُ وَالْبُرُوقُ

سَأَلْتُ الْمَخْبُولَ : « أَيُّ سُؤالٍ هٰذا ؟ »
قالَ : « طالَ بِيَ الْبَحْثُ عَنِ السِّرِّ فِي تَغَيُّرِ أَشْكالِ الْقَمَرِ .
عَبَثًا حاوَلْتُ أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى السَّبَبِ فِي ذٰلِكَ .

خبِّرني إذا شئتَ النجاةَ بنفسك : لِماذا يبدو القمرُ هِلالًا صغيرًا أوّلَ الشهرِ ؛ ثمّ لا يزالُ يكبرُ حتّى يستديرَ ويتمّ نورُهُ . . ثمّ يعودُ فيصغرُ شيئًا فشيئًا ، حتّى يستخفِيَ ويطلعَ غيرُهُ ؟

خبِّرني : ماذا يُصنعُ بالقمرِ القديمِ ؟

ليتني أجدُ عندكَ جوابًا يشفي حيرتي ، ويُنقذُني من دهشتي ! »

ابتسمتُ للمخبولِ متلطِّفًا . قلتُ لهُ متودِّدًا :

« تبًّا لأولئكَ الأغبياءِ ! أليسَ فيهم رجلٌ رشيدٌ !

أما كانَ فيهم مَن يُفضِي إليكَ بالنَّبإ اليقينِ ؟

ألم يعرفوا أنَّ الأقمارَ القديمةَ ـ بعدَ أنْ تغيبَ عنّا ـ تظلُّ مختبئةً ؛ حتّى إذا جاءَ فصلُ الشتاءِ ، تألّفتْ منها البروقُ التي تلمعُ في السُّحبِ والغيومِ ؟ »

ابتهجَ المخبولُ بما سمِعَ من هُراءٍ . اطمأنَّ قلبُهُ إلى تلكَ الأكذوبةِ الجوفاءِ . لم يُخامِرْهُ شكٌّ فيما قلتُ .

اشتدَّ عجبي مِمّا رأيتُ . لم أكنْ أحسَبُ أنّهُ فارغُ العقلِ إلى هذهِ المنزلةِ . سُرعانَ ما رأيتُهُ يهوِي بفمِهِ إلى يدي مُقبِّلًا ، وينصرِفُ عنّي قائلًا : « شكرًا لكَ ، أيُّها الفيلسوفُ العظيمُ ! هذا رأيٌ مُصيبٌ ، لم يكنْ ليخطُرَ لي على بالٍ ! »

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
5، شارع قرطاج تونس
79 / 35 / 22
أكتوبر 1979

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج – تونس